# فصل من رواية الصخرة*

فيصل حوراني

في هذا الوضع، صرتُ، بمضيّ الوقت، واحداً ممن يفترس الإحساسُ باللاجدوى مزاجهم ويبدّد الخواء طاقتهم وما اختزنوه من خبرة، واحداً من الذين تتناوشهم الغصّات.

ولئن اشتدّ صخبُ التذمّر مع استشراء الغثاثة التي تقترن بالفساد، فقد بقي في أيدي المفسدين السلاحُ الذي يُحبط معظم المتذمرين، فأفرطوا في استخدامه: المال الذي يبرّر السخط ويوجّه التذمّر في مسارب تبدّده. ولم يفتقر المفسدون والفاسدون إلى راية جليلة: الأخطار محدقة بالشعب وثورته، وفي أوقات الخطر يتّحد الجميع، ولا مجال لنشر أيّ غسيل قذر. وأنتم تعرفون أن الأخطار ظلّت على الدوام كثيرة وشديدة، فلم ينقطع تواترها في أيّ وقت.

كنتُ أشهد كيف اختلط أمرنا، كيف امتزج غريب الآراء بغريب السياسة بغرائب السلوك، وكيف أنتج المزيج ثماره الغريبة. فسادٌ يتستّر بدعوات جليلة. ونفاق يتستّر بالحاجة إلى الالتفاف حول القيادة. وتفلّتٌ من التزامِ ما هو لازم، يتستّر بالدعوة إلى الوحدة الوطنية. وترّهاتٌ عديدة تختلق ما تتستّر به أو لا تتستّر بشيء. كنتُ أرى كيف يُطوّع فاسدو الرأي والضمير والذمّة حتى بطولات الأبطال وأمجاد الماجدين لمصلحة فسادهم. وكثيراً ما تساءلتُ بيني وبين نفسي عما يُبقيني في الساحة، أهي حقّاً الحاجةُ إلى الاتّحاد في وجه الأخطار، أم هو تهيّب الإقرار بالعجز، أم هو تأثير روتين صار آسراً، أم هي، قبل أيّ شيء وبعده، عادة التواجد مع الربع في الساحة التي لم يوجد لنا سواها؟

---

* فصل من رواية لفيصل حوراني تصدر قريبا

بمضيّ الوقت، انتهيتُ إلى ما انتهى إليه غيري، شلّة أصدقاء جمعنا في البداية الإهتمامُ بالمطالعة، والحاجةُ إلى تبادل الكتب. ثم قرّبت بيننا اهتمامات مشتركة أُخرى وأمزجة متماثلة. وصارت لنا في الساحة التي صار لها سمات الغابة مصطبةٌ شكّلنا نحن نواتها وحفّ بها آخرون كثيرون. وأقنعنا أنفسنا بأن مصطبتنا هذه نقيّة. ولم نبخل على مصطبتنا براية جليلة: أن تكون قدوةً في نقائها. وقرَنّا الراية بدعوة جليلة هي الأخرى: أن تتّحد المصاطب المماثلة ذات يوم، فيصير لها الصوتُ الغالب، ويندحر الفساد.

ولكي لا نُقرّ بعجزنا عن تبديل الحال، لكي نحتفظ بمسوّغ الاستمرار والركون إلى تميّزنا، صرنا نغالي في تصوّر حجوم الإنجازات وننسب ما يبرز منها، بعضه أو حتى كلّه، إلى جهودنا. وأغلبُ ظنيّ أنّكم لم تنسوا كيف كنّا نجمع خيوطاً متفرقة ونغزلها حكايات نُظهر بها أن العطب طارئ، وأن إصلاحه ما زال في المتناول. وأنتم تتذكّرون، دون شك، كيف كنّا، نحن وأمثالنا الذين توزعتهم مصاطب عديدة، نحثّ على الالتزام بالجماعة، وندعو إلى تغليب الأهمّ على المهمّ، ونعلّل أنفسنا بأن المهمّ سيأتي دوره ما أن يتم إنجاز الأهمّ.

هل كنّا واثقين حقاً بأن الدعوة إلى الإصلاح ستتحقّق في أي وقت، أو إننا كنّا نداري أرقَ ضمائرنا بالبحث عن مسوّغات للاستمرار في ما ألفناه؟ تغليب الأهمّ على المهمّ، ألم يُفض إلى القصور في إنجاز أيّ منهما؟ ألم يستمرّ الفساد السياسيّ والتنظيميّ والإداريّ ومعه فساد الذمم والقيم؟ وهل يُمكن بلوغ الأهمّ دون إنجاز كلّ ما هو مهمّ؟

لا أتذكّر متى بدأت هذه الأسئلة تراودني، لكني أتذكّر كيفَ كنتُ أُنحّيها كلّما راودتني. فإذا اشتدّ حضور الأسئلة بحيث يصعب إغفاله، كان حدثٌ ما يقع، عدوان غالباً ما تكون إسرائيل هي المبادرة إليه، فيُسهِّل عودتنا إلى حكاية المهمّ والأهمّ. والأهمُّ دائماً هو الإتّحاد لمواجهة العدوان الخارجي. صرنا المريضَ الذي داهمت الأمراض جسده وروحه فقاومها ما وسعته المقاومة. وحين استعصت أمراضه على العلاج، عزّى المريض نفسه بأنها ليست هي القاتلة، ورضي ببقايا العافية، وتصوّر أنها كافية لمقارعة العدو الخارجي. ولعلّ هذا هو ما يعنيه الطبيب حين يصف حالة مريضه بأنها مستقرّة. لقد استقرّتْ حالتنا، ويا له من استقرار!

حصار الشهور الثلاثة، حصار بيروت في صيف ١٩٨٢ الحارق، جاء وحالتنا في قاع استقرارها. وفي المربّع الذي حشرتنا آلة الحرب الإسرائيلية فيه، أحدق بنا خطر الإبادة. وقتها، فرض الأهمّ تأثيره على الجميع وحفز المحاصرين على الاستبسال في الدفاع عن النفس. وفي المجابهة بين المخارز الفتّاكة وبين رموش العيون، تألقتْ عيون العازمين على النجاة، وأظهرت الزنودُ أمضى العزائم. وما أكثر

ما توفر في شهور الحصار مما افتخرنا وما نزال نفتخر به، وما أشدّ ما سطعت الحاجة إلى الإصلاح وانتعشت الدعوة إلى تحقيقه! ولئن أمكن لآلةِ العدوان أن تدفعنا إلى الخروج من بيروت، فإن ثبات الشهور الثلاثة لم يتبدّد بغير ثمن؛ فقد نجا جسمُ الثورة البشريّ من الإبادة الماحقة، وبقي للعيون المتألّقة ما يُمكن أن تتطلّع إليه.

أنتم لم تنسوا ما حلّ بنا بعد ذلك. تقاسَمتْنا المنافي القديمة والأخرى الجديدة. والذين سجّلوا باستبسالهم ملحمة الدفاع عن المربّع المحاصر والنجاة من الإبادة، استعادت المنافي القديمة بعضهم فقط، أما الآخرون فتوزعتهم معسكراتٌ نائية ومعزولة في صحارى ليبيا والجزائر وجرود اليمن. واختارت قيادة الثورة الإنتقال إلى تونس. فنشأ في العاصمة البعيدة هي الأخرى مركزُ الثقل القيادي الجديد، وتهيأ لبعضكم حظُّ الإقامة فيه.

كانت هذه بالنسبة لبعضنا هجرة ثانية، فيما كانت الثالثة أو الرابعة أو حتى الخامسة لكثيرين منّا. كلّها هجرات وكلّها منافٍ، هكذا عزّيتم أنفسكم وأنتم تكتمون الغصّات وتحبسون دموع الأسى. وإن أبعدت الهجرة الجديدة المقاتلين من أجل حرّية وطنهم عن حدود الوطن، فإنها لم تطفئ توقهم للعودة إليه. علّلتم أنفسكم بالأماني وأنتم موغلون في ما لا ترون نهايته. استحضرتم قول شاعرنا: أبتعدُ عنكِ لأحبك أكثر، ونسجتم أحلى الأماني: كلّما دفعَنا عدّونا إلى الابتعاد عن وطننا كلّما اشتدّ عزمنا على العودة إليه.

لطالما تساءلتُ أنا، ولعلّ كثيرين تساءلوا مثلي: إلى أيّ مآلٍ كان حالنا سينتهي لو توفّرت لنا في المنافي حياةٌ عادية، لو لم نتعرّض للتضييق على الحركة والرزق؛ وإلى أين كانت ستؤول مشاعرنا الوطنية لو لم يُطاردنا مغتصبُ وطننا حتى ونحن في المنافي؟ ولكُم أن تعرفوا الآن أن في داخلي سؤالاً لم أجهر به من قبل: هل ثرنا، حين ثرنا، ضدّ ظروف عيشنا في المنافي، أو إننا ثرنا بدافع الرغبة في استعادة الوطن المغتصب؟ وإذا امتزج السببان، فأيّهما كان الأفعل في حفزنا على الثورة: ظلمُ ذوي القربى أم جور العدو؟ وما أشدّ ما عنّاني البحثُ عن إجابة، وما أشدّ ما تبلبلتُ كلّما لاحظتُ كيف يستبسل ثوارنا في المواجهة مع ذوي القربى بمقدار ما يستبسلون في مواجهة العدو، وربّما أكثر!

أبتعدُ عنك لأحبّك أكثر، قول قد يطيب التعزّي به، لكنه لا يبدّل الواقع. والواقع أن البعد جفوة، كما وصفته الحكمة الشعبية. وما أكثر ما استحضرتُ أنا هذه الحكمة في الرحلة التي رجعتُ منها لتوّي!

أدمنّا المنفى. وأزمن التشرّد. وصار التنقّل بين المنافي توقاً امتزج مع التوق إلى الانهماك في المغامرات. فارقتم لبنان وفي نفوسكم حسرات، مع أنه كان منفى وليس وطناً لكم، ممرّاً وليس مستقرّاً. تحسّرتم على المغامرات التي فقدتموها. ولكي لا يهدّكم الفراق، منّيتم أنفسكم بفرصٍ جديدة. حين

كان آباؤكم في أوّل عهدهم بالمنفى، قال شاعرهم: "الصمتُ موت"، فضجّ محيطكم بالصراخ. ومنذ اخترقتم القيود التي كبّلت حركتكم، بدّلتم القول، فصار "السكون هو الموت"، ثم لم تكفّوا عن الحركة. وإذا ضاقت الفسحُ المتاحة أو انسدّت سبل الخروج من مكان، صرتم تراوحون حيث انتم مكرّرين ما أبعدكم عن المكان السابق، ولا تكفّون عن المراوحة ما لم ينفتح منفذٌ إلى منفى جديد!

منذ تقرّر خروجنا من بيروت، عُرض عليّ أن أختار بنفسي المنفى الذي أُرسَل إليه؛ ألم أكن من المتصلين بذوي الشأن!

لم أنجذب لمنفى بعينه. لم أنشغل بالمفاضلة، بل اخترتُ التوجّه إلى البلد الذي تقرّر أن تتوجه إليه نواة مصطبتي. كان عدد أفراد النواة قد استقرّ منذ بعض الوقت على أربعة: حازم المدني، مجايل أخي وصديقه الذي لم يقطع صلته بي بعد استشهاد فادي بل عزّزها، وهو الكاتب السياسي ذو الشهرة الذي أولى نفسه الدور الذي كان لأخي الشهيد في حياتي أنا. وأمير القاسم، مجايلي أنا، المؤرّخ المسكون بالتوق إلى البحث وتجميع شهادات شهود العيان. وثالثٌ أتردّد في ذكر إسمه لأنّ حاله تبدّل وسلوكه انقلب رأساً على عقب، فاعفوني من ذكر هذا الإسم! وكنت أنا رابع هذه النواة.

بهذا الاختيار، وجدتُني في الباخرة التي حملتْ من أُرسلوا منّا إلى سورية. كان حال دمشق التي أعادتني الهجرة الجديدة إليها قد تبدّل. وكنتُ أنا الآخر قد تبدّلت. فلم أجد في الوضع الجديد ما يفتنني. ولولا تعاوننا، نحن أصدقاء المصطبة، في ابتكار ما يجعل الوضع محتملاً، لفتكت الكآبةُ بي منذ ذلك الوقت.

الحشد الذي كان في بيروت، ربعي، الخيّر منهم والشرّير والذي بين بين، من أودّ منهم ومن أجفو، تفرّقوا في بلاد شتّى، وانشغل كلّ فريق منهم بالظرف المستجد؛ تسلّى القليلون بالمشاغل القليلة المتاحة، وتسلّى الجميع بالنمائم. الفريق الذي حلّ في دمشق لم يُشكِّل استثناءً. فتشبّثنا، نحن أصدقاء المصطبة، بما فعلناه حين كنّا في بيروت، وشدّدنا عزمنا على أن نظلّ متميّزين. كان فيَّ بقايا همة طمرها الرماد الذي داهمنا بالخروج من بيروت، فاجتهد حازم أن يبعث ما تحت الرماد ويجدّد الوقد؛ شجّعني على القراءة، وأشركني في تحضير ما يلزم للدراسات السياسيّة التي يكتبها، وحثّني على الكتابة ودرّبني. ومن جانبه، أشركني أمير في ما ندب نفسه له، هو الذي انصرف إلى جمع شهادات شهود الحصار. أمّا الذي أحجمتُ عن ذكر إسمه، فإن مسيرة ابتعاده عنّا بدأت فور وصولنا إلى دمشق، لكنه لم يقطع صلته بنا كليّة، بل كان يُشركني أنا بالذات في بعض مشاغله. ولأن هذه المشاغل حسّنت وضعه المالي، فقد حرص على أن يوفّر لنا فرص الترويح عن النفسَ كلما تيسّر له وقتٌ فراغ يُخصّصه لمن كان هو واحداً منهم.

لم يصر عيشنا، إذاً، شديد السوء. غير أن الجوّ لم يكن ملائما لأيّ إنجاز ذي بال، لا لأداء المهامّ، ولا للانهماك في التفكير، ولا حتى للمتع. ولا أشكُّ في أنّكم تتذكّرونه، ذلك الجوّ، تتذكّرون اضطرابه، وصخبه، المزايدات السياسية والمناقصات التي لم يُفضِ أيّ منها إلا إلى مزيد من الاضطراب والصخب، وانهماكُ الذين خسروا مفاسدهم البيروتية في تدبّر مفاسد جديدة. وإذا كان بينكم من نسوا كيف تبدّدت في هذا الجوّ الدعوةُ إلى الإصلاح، فأنا لم أنس كيف قَسَمنا الجوّ العكر إلى أقليتين: واحدة راغبة في الإصلاح؛ وأخرى تستغلّ الدعوة إليه لتستر سعيها إلى تقاسم المفاسد، كما لم أنس كيف غامت الرؤية فتاهت الأغلبية.

أسوأ ما وقع مع هذا السوء كلّه أن عقد نواتنا الصغيرة، ملجأ ضمائرنا، انفرط. الذي لم أُسمّه غادر إلى تونس فجأة، دون تقديم أيّ إيضاح. وحازم وأمير أُبعدا عن البلد بقرار من سلطته، دون أن نتلقّى إيضاحاً أو نتمكّن من معرفة السبب. وصرتُ وحيداً لا أعرف ما الذي قد يقع لي، تتداولني الهواجس وما من يقين.

ولم يلبث أن تواترت الأنباء المحبطة، فالذي ابتعد عنّا بإرادته، ابتعد أيضاً عن كلّ ما كان يجمعنا من قِيَم، وأوغل في السلوك الذي طالما انتقدناه معاً. ومنذ حلّ في تونس، أشهر صاحبنا ارتداده، وفيها برز شأنه بين الذين يحفّون بالمفسِدين من قادتنا. وحازم وأمير شغلهما البحث عن مكان يستقرّان فيه دون أن يتوفّر مثل هذا المكان. وبغياب ما كان يُوفّر لي شيئاً من التوازن، لم يبق أمامي سوى واحد من خيارين: أن أَلغَ في ما يلغ فيه كثيرون، فأوالي جهة وأهارش أخرى؛ أو أن أبرح الساحة كلّها وأبحث عن مصير فردي، أن أضيع في الجماعة مع الجماعة، أو أن أوثر العزلة. وعليّ أن أقرّ بأنّي كنتُ سأختار العزلة دون طويل تردد لو ضمنتُ أن تُجنّبني الضياع.

مرة أخرى، سطع السؤال الممضّ: ما الذي يشدّني إلى الساحة فيبقيني في الحمأة؟ ومرة أخرى لم أهتد إلى إجابة أركن إليها وأستريح. وهل يتيسّر، حقاً، أن يهتدي الإنسان إلى إجابة على كلّ سؤال، كما يدّعي المتحذلقون؟ الفشل في الوصول إلى إجابة لم يطفئ السؤال: أبقى أم لا أبقى مع الربع الذي أضيق بكثير من أحواله؟ لستُ أشكّ في أن السؤال ذاته راود كثيرين منكم في ظرف أو غيره. وأغلب ظنّي أن من جبههم السؤال قد استوقفهم ما استوقفني: مشقّةُ اتّخاذ قرار باعتزال الجماعة، وثقلُ العزلة على الروح. أن تُقرّ بالفشل بعد أن أعطيتَ عمرك لقضيّة جليلة، أن تطمر أملاً عشتَ عليه منذ نشأتَ، أن تزيل ألوان رايتك فتجعَلها بيضاء، هذا كلّه، كما وصفه حازم على الهاتف وهو يزيّن لي الصبر، كان بين ما ينطوي عليه الإنفصال عن جماعتنا، أيّاً ما آل إليه حالها، فكان أقسى من أن أقدم عليه دون تردّد.

وإذا رغبتم في أن أجلد ذاتي أمامكم، في أن أقرّ بعجزي، فلأَقلْ إن إرادتي غدت كليلة. تبديل مركز الاهتمام، تعديل سلّم القيم، التخلّي عما كوّنتُه طيلة سنوات واختيار سلّم قيم مختلف، والشروع في بداية جديدة لتكوين النفس من جديد، ترك المألوف حتى لو كان ممّا أضيق به والتخويض في المجهول، هل كان بإمكان من تخطّى سنّ الشباب دون أن تكون له مهنة ودون أن ينشغل بغير الهمّ العام أن يُقْدم على هذا كلّه؟

طال ترددي. ولعل من الأصوب أن أقرّ بأن استسلامي للعجز هو ما طال. وإلى نصيحة حازم، طلبتُ نصيحة أمير. فجاءت على الهاتف النصيحةُ ذاتها: "احتمل، تسَلَّ بما هو متيسّر، واحتمل"! ولشدَّ ما أمضّني العجز عن التوصل إلى رأي يحرّرني من المضاضة! المطالعة مسعفة، ومحاولتي الكتابة تكرّرت. غير أن العناء كان أوجع من أن يُنسيني إيّاه كتابٌ أو كتابة.

فجأة، وقع في دمشق الحدثُ الفلسطيني الذي أجّج شهوتنا المزمنة، شهوة الانهماك في المعامع الكبيرة. تتذكّرون حركة الإنشقاق التي تراكمت نذرها المتفرقة منذ الخروج من بيروت، وكيف صارت دمشق هي مركز المنشقّين. ولكُم أن تعرفوا أن وقوع الإنشقاق في ساحتنا وملابساته أوجعت روحي زيادة على ما كانت موجوعةً بدونه. غير أن حرقة الوجع الزائد هي التي انتشلتني من الكآبة وحرّكت ما كان قد همد. الخطر الذي أحدق بوجود الثورة ذاته أعاد حكاية الأهمّ والمهمّ وأعادني أنا إليها.

المنشقّون توقّعوا أن أُؤيدهم. ظن هؤلاء أن عزفهم على وتر الاصلاح يفتنني. والذين شكّلوا جماعة خارجة على الجماعة حاولوا اجتذابي إليهم فسمعوا إجابة قاطعة: للخروج على الجماعة، حتى لو تستّر بدعوة جليلة، صفةٌ لا ينطبق عليه سواها، العصيان، وخطرُ العصيان يشتدّ حين يقع في زمن الخيبة، وأنا لا أنضمّ لعصاة هذا الزمن. وحين يستند العصاة إلى دعم خارجي يوفّره لهم من زكمت رائحة فسادهم كلّ أنف، فإن ادّعاء الرغبة في الإصلاح يصير مسخرة ولا يفتن إلا البلهاء.

هاتفني حازم وأمير وآخرون من مؤيّدي مصطبتنا القديمة؛ كانوا قلقين مما جرى، وكان خوفهم عليّ أنا العالق في مركز الخطر شديداً. وتطابقت الآراء: مع الشرعية مخطئةً أو مصيبة وضدّ العصيان. ولأني كنتُ الوحيد من نواة المصطبة الباقي في دمشق، فإن ضغوط المنشقين ومدعّميهم اشتدت عليّ. وما كان أقبح تلك الضغوط وأقساها!

العراك مع المنشقّين جدّد الطاقة وشحذ الهمّة. وحين توعّدني هؤلاء باذى لا أستطيع ردّه، صار منطقياً أن أبرح ساحة نفوذهم. وفيما أنا أفكّر في المغادرة، وصلني من قيادة الثورة ما حدّد لي الوجهة: "إلتحقْ بنا في تونس قبل أن يقع الأذى"! فتهيأتُ للإنتقال إلى منفى جديد، وأبلغتُ ما

عزمت عليه إلى حازم وأمير، وأملتُ في أن نلتقي هناك.

هذا المسار الذي ارتسم قطمته واقعةٌ شخصية صرفة رسمت لي مساراً آخر ودفعتني نحو مصير مختلف. نداء عاجل من أمّي حمل إليّ ما كتمتْه العجوز عنّي من أحوال أختي ساجية. فحياة الأخت الطموحة تعثّرت في الولايات المتحدة؛ لم تتوفّر للأخت العزيزة فرصة الدراسة في الجامعة، ولم تُطق هي أعباء التواؤم مع جوّ ومجتمع غريبين، ولم تستقم علاقتها بزوجها. وهذا كلّه اختُتِمَ بطلاق ساجية ورجوعها إلى منزل الأسرة في عمّان. لم ترجع ساجية مثقلة بخيبة آمالها، فقط، بل مصابة أيضاً بمرض لم يتّفق الأطباء على تشخيصه ولم يهتد أيّ منهم إلى علاج ناجع له، لكن الجميع اتفقوا على أمر واحد: لا بدّ من إخراج المريضة من متاعب روحها، وبدون هذا يتعذر إيقاف تدهور حالها. وختمتْ أمّي نداءها بعبارات حاسمة الدلالة: "أُختك في خطر، وشوقها إليك يفري كبدها، وهي تهذي وتكّرر إسمك في هذيانها كما في صحوها، فلا تتأخّر في المجيء إليها"! فهل ظلّ بإمكاني، بعد هذا، أن أتوجّه إلى غير عمّان.

لم أجهل أن عودتي إلى الأردن قد تجلب لي متاعب. صحيح أن مياها جديدة غمرت أقنية علاقاتنا بسلطات البلد. إلا أن ملفّات الأمن، تعرفون أنتم هذا معرفة تامة، لا تتبدّل، وملفّات الأمن هذه تختزن ما أؤاخذ عليه، أنا حامل جنسيّة البلد، والذي حمل ذات يوم السلاح ضد سلطاته. وربّما كان عليّ أن أتأنّى إلى أن تتمّ معالجة تركة الماضي، غير أن النداء المنذر أعلجني، فجازفتُ بالتوجّه إلى عمّان دون تدبير أو حتى اتّصال مسبق.

قدّمتُ جواز سفري في معبر الحدود إلى رجل أمن. وتصرّف الرجل بكياسة إن لم تلغِ هواجسي فإنها برّدتها؛ أذن لي بالدخول بالرغم من أن صلاحية جواز سفري منتهية، وأبقى الجواز عنده، وقال دون أن تحمل نبرة صوته أيّ إنذار: " راجع المخابرات العامّة بعد ثلاثة أيّام"! لم يُقدِّم رجل الأمن إيضاحاً. ولم أجدني بحاجة إلى إيضاح.

أنعش قدومي ساجية. ابتعدت المريضة عن خطر الهلاك. وسعدتْ أمّي بي وبنجاة أختي. وفي غضون ذلك، كان عليّ أن أسوّي مشاكلي مع ناس المخابرات حتى أتمكن من إنفاذ عزمي على التوجّه إلى تونس.

تكررتْ زياراتي لمبنى المخابرات العامة. وفي كل زيارة، كان يُطلب مني أن أجيء في اليوم التالي. وأخيراً، بعد أن شحنني الإرجاء المتكرر دون تفسير بأشدّ الضيق، أُخضعتُ لتحقيق متأنٍّ، جلسات عديدة، على مدى ثلاث نهارات متتالية، تناوبني فيها ضبّاط من اختصاصات مختلفة، ورماني كلّ منهم، حسب اختصاصه، بأسئلة تقصّت كلّ صغيرة وكبيرة في وقائع سلوكي وفي أفكاري. وقيل لي ردّاً

على تذمّري من كثرة الأسئلة ومطالبتي حتى بكشف خصوصيّاتي الشخصية: "إنها عمليةٌ استكمال معلومات لإقفال ملفّك". كلّ هذا دون أن يفتقر أيّ ضابط إلى كياسة القول أو الحركة.

آخر ضابط حقق معي جبهني بطلب أجزم أن كثيرين منكم جُبهوا بمثله في بلد أو غيره: "إعمل معنا، فأتمكّنَ من حلّ مشاكلك كلِّها"! وكان هذا طلباً ليس له سوى المعنى الكريه الذي تدركونه: خنْ جماعتك!

عرض الضابط طلبه بعبارات إن بدت مؤدّبة فإنها انطوت على وعيد. وبدا رجل المخابرات ذو السطوة واثقاً من قدرته على امتهان إنسانيّتي. يواجهك الواحد من هؤلاء بما يوحي أنّه يعدُّك مُهمّا، فتظنّ، إن كنت ما تزال غريراً، أن لك عندهم شأنا متميزاً. فإذا حلّ وقت الجهر بالطلبات، فستظهر المفارقة. ففي نظر من يتمتع بسلطاتٍ فوق القانون ليس منّا من هو كبير.

عليّ أن أقرّ بأني كنتُ محظوظاً. فقد عدتُ إلى البلد في وقت كفّوا فيه عن اعتقال أمثالي. والعقوبة التي تعرضتُ لها، أنا الذي أبى أن يخون جماعته، اقتصرتْ على منعي من مغادرة البلد وحجبِ موافقة المخابرات التي لا بدّ منها للحصول على عمل. وقد استبقى رجل المخابرات جواز سفري عندهم. وقال الرجل وهو يصرفني دون أن يبدو عليه أنه فقد الأمل بتطويعي: "إرجع إلينا حين يرجع إليك عقلك"! وشفع القول بابتسامة حمّالة أوجه، ثم أضاف: "نشأتَ في هذا البلد وله عليك أفضال كثيرة، فكيف تستكثر أن تردّ له بعضها"!

وجدتني في وضع جديد عليّ: البطالة غير المقنّعة، والإقامة المفروضة بالإكراه، والبعد عن الجماعة، والتهويم في فراغ. ولئن كان هذا أشقّ من أيّ وضع سبقه، فإنه لم يَصِرْ مهلكاً. فمع الضيق، بقي لي دفء الحياة الأسرية، حنان الأم، ومودّة الأخت العزيزة على قلبي، واستقبال الأختين اللتين تجيئان من الكويت، وموسم الفرح الذي يتجدّد كل صيف بوجودهما ووجود زوجيهما وحشدِ الأولاد الذين أنا خالهم الوحيد. وفوق هذا، قبله وبعده، عزّاني أن وجودي يُعين ساجية على التعافي. وإلى المنزل الذي نملكه، كانت أمّي تتلقى الراتب الشهري المخصّص لأسرة الشهيد. وراتبي أنا الذي حجبه المنشقّون عني لم يلبث أن تدبّر ناسُنا في تونس أمر إرساله لي. فتوفّر للأسرة الصغيرة دخلٌ يجنّبها ضنك العيش ويمكّنها من الإنفاق بسعة على علاج ساجية. وبالإجمال، مع الضيق، أمكن للحياة أن تستمر.

هل استمرأتُ الوضع؟ هل استسغت الرتابة؟ هل غاض التوق إلى المغامرة والترحال والانهماك في المعامع؟ وجِّهوا هذه الأسئلة إلى أنفسكم واستخلصوا إجابتي التي لن تختلف عن إجاباتكم. فأنتم، أيضاً، واجهتم بعد الخروج من بيروت ما واجهته أنا، كلّه أو بعضه. ألم تعانوا في المنافي ذلك

النوع من البطالة المديدة والبغيضة؟ ألم يثقل عليكم الفراغ وانتظار المجهول؟ اسألوا المحظوظين القليلين الذين حفّوا بالقيادة في تونس وحظوا بالأعطيات السخيّة والمتع المباحة وغير المباحة، اسألوا الذين أمعنوا في الفساد وراكموا الثروات، هل قنع أيّ من هؤلاء بما آل إليه الحال بعد أن وهن النشاط الثوري وبهت الألق؟ هل استطاب أحدٌ الرخاوة وطوى التوق إلى المغامرة والأمجاد؟ هل توفّر لأحد الإحساسُ بالطمأنينة؟ أليس صحيحاً أن السكون هو الموت؟ ألسنا مرغمين على مداومة الحركة حتى نظلّ أحياء ولو انطمس الدرب وغامت الرؤية؟ ألم يحكمنا منذ نشأنا هذا التناقض الذي لا فكاك منه: فنحن، مثل الخلق جميعهم، محتاجون إلى الاستقرار، لكننا ندرك أن في الاستقرار مقتلنا.

كرّت سنون وأنا في عمّان، لا معلّق ولا مطلّق، لا مرفّه ولا بائس، لا سعيد ولا تعيس. وهنت الأحاسيس واستقرّت عند حدّ لا تتعدّاه، لم تعد تتوهج إلا أنها لا تخبو.

غاضت مفاخر الماضي. وضؤلت الآمال المعطوفة على المستقبل. احتجزني برزخ امتدّ بين الماضي الذي أعرفه والآتي الذي أجهله. وبهت حضور الحاضر الذي أعيشه. إنه البرزخ الذي يتأهّل الإنسان فيه لتقبّل أيّ شيء، ويكفّ عن التطلع إلى شيء بعينه، ويتدرّب على القعود. وكما صار إليه حال كثيرين منكم، استسلمتُ بمضيّ الوقت للرتابة حتى وأنا أضيق بها، وقلّت شكواي.

قعدنا، إلا أن الرزق ظل يأتي. غرفت القيادة من المال الذي خزنته حين كانت التبرعات تتدفق على الثورة تدفقاً. وأنتم تعرفون أن الخزين الاحتياطي كان هائلاً. وظلّت الرواتب تصل إلى من لم يطلبوا سواها. وتدفقت، زيادة على الرواتب، الأعطياتُ على من نشدوها. وبهذا، كما بسواه مما يماثله، ضمنت القيادة أن تهن إرادتكم في محاسبتها على ما آل إليه الحال، وأن يوجد من يدافعون عنها أو يمدحونها بالرغم من هذا الحال. إغلاق الأفواه مقابل إعمار الجيوب، طيّ الآراء المعارضة مقابل فرد أوامر الصرف، تقييد الإرادات مقابل إباحة النزوات والتشجيع على اتّباعها. أما امتشاق الألسنة والأقلام للثناء على القيادة وتشنيع منتقديها، فكان له ثمن ظفر به الذين غمرتهم الامتيازات وحظوا بتسهيل فرص الإيغال في المفاسد. ولأن الحق يستحق أن يُشهدَ له، فها أنا ذا أشهد للقيادة بأنها كانت سخيّة في إتاحة الفرص، بارعة في استدراج حتى المتردّدين إلى الولوغ فيها.

القيادة التي أوهنت إرادة أتباعها سعت حلقةٌ من بضعة أعضاء فيها إلى توهين إرادة بقية الأعضاء. وكان طبيعياً أن سعى واحد من أعضاء الحلقة إلى توهين إرادة الآخرين. ومنذ أفلح في تهميش كلّ من عاداه، صار لنا قائد فرد، مثلما أن لبعض الدول حاكماً فرداً. أُختزِل الشعب في ثورة، والثورة في قيادة، والقيادة في شخصٍ واحد. وبدل الأبواب العديدة التي انفتحت أمام طلباتكم والأصابع

الكثيرة التي تدعوكم إلى الالتفاف حول أصحابها، بقي لكُم باب وحيد وإصبع واحد ينتقي صاحبه من يُؤذن لهم بالاقتراب منه ومن يُسدّ بابُه في وجوههم إلى أن يجاروا من سبقوهم في منافقتهم إيّاه وتطييب كل ما يقوله أو يفعله.

ولأنه قائد نبيه، فإنه لم يُغفل أنكم ثوار، والثائر يُعلي شأن الكرامة؛ لم يُغفل أنكم لاجئون، واللاجئ محتاج إلى الإحساس بالأهمية. وما أكثر ما تفنّن القائد في ابتكار سبلٍ لتكريم من يرضى عنهم وسبلٍ لامتهان من يسخط عليهم! وما أكثر ما برع في تحديد مراتب تجيزُ للمرضيّ عنهم أن يفاخروا بالحصول عليها، وألقابٍ توحي بالأهمية! ولكَم كان هو بارعاً في إشغالكم بالتنازع على المراتب والألقاب مع بقائه مرجعاً لكلّ شأن وكلّ شخص. احتلّ هو القمم كلّها، وتوزعتكم السفوح. أمّا المسخوط عليهم فدُفعوا إلى القيعان. واستثمر القائد الفرد نزاعاتكم للتباهي: نحن ديمقراطيّون، والتعدّد من سمات الديمقراطية، وأشهرَ نفسه سيّد الديمقراطيين.

قد تعتذرون بأنكم لم تفطنوا إلى خطر اللعبة، ويا له من اعتذار! قد تتذرعون بأن الظروف لم تُتح خيارات أخرى؛ إنها الذرائع العتيقة: المخاطر التي توجب التركيز على الأهمّ قبل المهم؛ الحرص على سمعة الثورة، على سمعة الشعب؛ وما إلى ذلك مما ألفتُ أنا الآخر أن أتذرّع به مثلكم. وأيّاً ما كانت عليه الذرائع، فقد صار لكُم فَلَكٌ واحد تدورون فيه؛ إن واليتم فالقائد هو المولى؛ وإن سخطتم فهو الذي في البال. صار هو المركز والمحيط معاً. قائد واحد، سياسةٌ واحدة هي التي يرسمها، وإجراءات هو الذي يأمر بها فلا يُنفَّذُ سواها، ونشاطات هو الذي يُنظمُها فلا ينتظم غيرها ولا يُشرف عليها أحدٌ غيره. ولأنه لم يأذن بأن يألف غيرِ المسخوط عليهم شظف العيش ولم يبخل بالمال، فإن معظمكم ألف رغد العيش، فتوفّر للقائد ما رمى إليه، الترغيب والترهيب، الرفاه للمطيع والشظف للمتذمّر.

تذكّروا كم سنة انقضت وأنتم لا تشكون القلّة في شيء. ثم تذكّروا كيف قيل لكم فجأة إن الموارد شحّت، وأُنذرتم ليس بفقد ما ألفتم الحصول عليه، بل حتى بفقد ما يقيم الأود. فهل انتبهتم إلى تزامن وقت الإنذار مع الوقت الذي بدأ فيه التفاوض مع العدو؟ ألا تتذكّرون كيف تضاءل دفق الأعطيات إلى أن غاض، وكيف اضطرب صرف الرواتب إلى أن توقف؛ ألم يتزامن توقّف الصرف مع الانتقال بالمفاوضات من ميدانها العلني إلى ميدانٍ سرّي، العلني الذي تتابعون وقائعه، والسرّي الذي حُجب كلّ ما له صلة به حتى عن شاغلي مراتب قيادية عليا؟

في دواخلكم، هجستم بأن وقف الصرف مؤشّر على ما ستجيئ به المفاوضات العلنيّة، وتوقعتم أن تُحقّق نتائج غير مرضية، وانتظرتم أن يُطلب منكم قبولها الذي لن يُستأنف الصرف بدونه.

ولأنكم لم تعلموا بوجود المفاوضات السرّية، فما من واحد منكم هجس بأن نتائجها ستجيئ بما هو أسوأ. رأيتم كيف ظلّ الصرف جارياً على المشتركين في المفاوضات، كما على الذين يحيطون بهم من مضموني الرضا بأيّ شيء يوافق عليه هؤلاء، ورأيتم كيف استمرَّ فيض الأعطيات التي تمنح لهم. وكان في هذا ما يكفي ليؤجّج هواجسكم ويُظهِرَ ما يختفي وراء الزعم بشحّ الموارد. فما الذي فعلتموه، كم عدد الذين تجرأوا ولو على الجهر بهواجسهم؟

تتذكّرون حالكم في تلك الفترة التي طال أمدها، القلق الذي استحوذ عليكم، الخشية من أن يشيع عنكم ما يشي بوهن ولائكم المطلق للقائد، الانقطاع عن الذين واصلوا الانتقاد وسعوا إلى كشف المستور وحذّروكم من العواقب. ألم تكن هذه هي النتيجة الكريهة للمقايضة التي أحكم القائد نسجها: أطيعوا ترزقوا!

جرى لمعظمكم ما جرى لي. لم يقتصر الأمر على تقدُّم العمر دون أن يتعلم واحدنا مهنةً لا توجب ممارستها الحصول على موافقة أجهزة الأمن، بل تعدّاه إلى ما هو أخطر. ففي ملفّات هذه الأجهزة خزين يحرم الواحد منّا من أيّ عمل إلا إذا قبل أن يخون جماعته ويمتهن كرامته. وفي عمّان، واجهتُ أنا ما واجهه كثيرون منكم في بلد أو غيره. انقطع راتبي فضاق عيش الأسرة. ثم لم يلبث أن انقطع راتب أمِّ الشهيد، فصرنا، أمّي وأختي العليلة وأنا، بغير مورد، وصار عيشنا ضنكاً. وتحرّيتُ، أنا البعيد عن مركز القيادة احتمالات عودة الصرف، فأسعفني حازم وأمير وغيرهما بما عنى أن الانقطاع قد يمتدّ طويلاً لأننا لا نعرف متى ستنتهي المفاوضات. وكما لو كان الأمر مقصوداً، فإن انقطاع الموارد تزامن مع النكبة الماحقة التي تعرّض لها الفلسطينيون في الكويت. فأختاي وزوجاهما وجيش أولادهم طُردوا من إمارة النفط، مخلّفين وراءهم كل ما يملكون، وجاءوا إلى عمّان، وصاروا، هم أنفسهم، بحاجة إلى العون.

لو أن هذا الوضع جبهني في ظرف مختلف لما زعزعني. أمّا بعد انسداد السبل وضيق مجالات التشرّد ذاتها، فما كان أعسر أن أظل كما كنت!

تعرفون ما الذي يفعله العاجز حين يُرغم على قبول ما يأباه لو كان مقتدراً. وتتذكّرون كيف انبرى كثيرون لتزيين ما يُزمع القائد الإقدام عليه حتى قبل أن يعرفوه. ألم ينشط الحديث عن الواقعية في بازار المبرّرات الذي انتصب؟ ألم يقل قائل هؤلاء إن القائد محنّك وهو يعرف ما ينفع الشعب وما يضرّ به؟ ألم تُستحضرّ الحالات التاريخيّة التي انعقدت فيها تسويات بين أطراف متعاديةٍ؟ هل نسيتم المتديّنين منكم الذين استحضروا صلح الحديبية والآخرين الذين استحضروا صلح لينين مع الغزاة الألمان؟ ألم تُدرِج المقارناتُ القائدَ بين بعيدي النظر من عظماء التاريخ؟ لا أظن أنكم نسيتم

كيف استُحضر واقع الحال أيضاً؛ الانهيارات المتتالية التي تبرّر السعي إلى أيّ تسوية لإنقاذ ما يمكن إنقاذه مهما غلا الثمن؛ تخلّي الأشقّاء عن مجابهة إسرائيل وتركهم الانتفاضة الفلسطينية وحدها في الميدان؛ انهيار التضامن العربي الذي كان يشدّ أزرنا؛ سقوط الجدار الاشتراكي الذي طالما استندنا إليه حتى ونحن نخاصمه. ويا وحدنا، فما الذي نقدر عليه!

طال الأمد. وهل كان لأمد التفاوض على موضوعات شائكة إلا أن يطول. وثقلت الأعباء، خصوصاً عبء تدبّر حاجات المعيشة، خصوصاً على العجوز، سيّدة الأسرة المشرفة على عتبة السبعين. وفي ظروف العوز، انتكست حالة ساجية؛ داهمت العليلةَ التي لم تبلغ الخامسة والأربعين أعراضُ هرم مبكر انضافت إلى أعراض مرضها الغامض. أظلمتْ روح ساجية، وهزل جسدها حتى لكأنه صار يذوب. ولم يلبث أن فارقت الأختُ الحبيبة دنيانا ونحن عاجزون حتى عن إعداد جنازة لائقة لوداعها.

طال العناء. واستغرقتنا الهموم اليومية. وتراكمت الأعباء: فواتير الماء والكهرباء التي لم تدفع وانقطاع شريانيّ الحياة هذين؛ انقطاع خطِّ الهاتف؛ حسابات البقّالين والقصّابين الذين كفّوا عن تزويدنا بما نحتاج إليه قبل أن نسدّدها؛ الديون التي أُخذتْ من كلّ مصدر متيسّر حتى لم يبق مصدر؛ إلى آخر قائمة العناء التي كابد كثيرون منكم ما هو أقسى منها. انفقتْ أمّي مدّخراتها حتى ما خبأته لجنازتها، وباعت ما يمكن الاستغناء عنه، ثم باعت ما لا يَستغني عنه إلا البؤساء، ولم يبق ما يباع. وبحثتُ أنا عن عملٍ متواضع لا يتشدّد سيّده في المطالبة بموافقة السلطات، فلم تتوفر أيّ فرصة. وفيما حالنا ينحدر من قاع إلى آخر دونه، ولأننا توسّمنا مجيء الفرج بعد انتهاء المفاوضات، فقد صرنا نتعجل انتهاءها. لم يستحوذ مجرى المفاوضات ذاته على اهتمامنا ولا طبيعة النتائج المرتقبة. اهتمامنا تركّز على شيء واحد: أن تنتهي هذه المفاوضات إلى نتيجة ما، أيِّ نتيجة!

مع الحاجة، خصوصاً حين تُسلمك الحاجةُ إلى الهوان، تتحلّل التحفّظات أولا بأول، إلى أن تسقط حتى التحفظات التي يُسلمك سقوطها إلى هوان من نوع آخر لكنه يبقيك على خطّ الحياة. وهذا هو ما آل إليه أمري، أنا الذي لا أشك في أن أمور كثيرين منكم آلت إليه أو إلى ما يماثله. ضغطُ الحاجة أنبت، إذاً، الاستعداد للقبول بأيّ شيء، أيّ شيء دون استثناء، وحملني على الذهاب بنفسي إلى المخابرات معتزماً الاستجابة لأيّ طلب مقابل إذن العمل. لكني اكتشفتُ لدهشتي الشديدة أنهم، هناك، نسوا أمري ولم يعودوا بحاجة إليّ، حتى أنهم أعادوا لي جواز سفري القديم، وقالوا إنهم لن يمنعوا حصولي على جواز جديد. أما إذن العمل فقالوا عنه: هذه حكاية أخرى، ثم لم يأذنوا لي حتى بالمناقشة.

ابو سمير قريب من أقرباء أمّي ألف مؤاخذتنا، فادي وأنا، منذ البداية، على تبديدنا العمر في الوطنية دون أن نكنز شيئاً لأنفسنا أو أسرتنا. وبانحدارنا إلى قاع العوز، وجد القريب سبباً ليشدّد اللوم: "راح غيركما إلى الثورة ودبّر لنفسه قرشين انتفع بهما عند الضيق، أما أنتما، فواحد ضحّى بحياته والثاني عاطل عن العمل وبائس". وذات يوم، زارنا أبو سمير، وقال لي بحضور أمّي إنه التقى برجل يعرفني منذ أيام لبنان ووعده بأن يحضرني إليه، وذكر اسم الرجل فلم أتذكّره، لكني قبلتُ أن يأخذني إليه.

وفي سوق مكتظ بالباعة والشارين، قادني أبو سمير إلى رجل قاعد على الأرض وأمامه صينية ترمس يبيعه للعابرين بطريقة أقرب إلى التسوّل. وما أن وقعتْ عيناي على من لاحظت أنه مقعد حتى انفتحت الذاكرة: أبو سلطان الذي كان معي في القاعدة في جنوب لبنان. كان أبو سلطان أفرس مقاتلي تلك القاعدة وأحبّهم إلى قلبي. وكنتُ أنا من أوكل إلى الرجل مهمّة قيادة مجموعة في عملية خطيرة، فأدّى المهمّة بنجاح لا يبلغه إلا بطل، لكنه خرج من العملية بإعاقة دائمة، هو الذي نجا من الموت لأن مقاتلي المجموعة أبوا أن يتركوا قائدهم في الميدان، فتناوبوا حمله. وفي اللقاء مع بطل صار بائع ترمس شبيه بمتسوّل، لم يفلح عزيز القوم الذي أُذِلَّ في حجب أساه، ولم أفلح انا في حجب تأثري؛ بكى البطل العتيق، ولم أَجد أنا، قائده السابق، مما أواسيه به إلّا أن أبكي معه.

وفي منزلنا الذي أرجعتني إليه سيّارة أبي سمير فيما نحن صامتان، إتضح ما توخّاه قريبُ أمّي حين دبّر هذا المشهد. فقد كان في جعبته عرض عمل لي خشي أن أستصغره، فأرجأ الكشف عنه إلى ما بعد اللقاء: "معك شهادة سواقة خصوصّية أستطيع تدبّر تحويلها إلى عمومية. وعندي تاكسيات تستطيع أن تقود واحداً منها، ولي صلات تضمن ألا تعترض المخابرات". وشفع القريب عرضه بالمنّة: "سواقة تاكسي أكرم، حتى لبطل، من بيع الترمس، وأنت قريبي، والأقربون أولى بالمعروف".

كان هذا الرجل الذي لا أشك في أن أمر معيشتنا يعنيه هو أكبر مقرضينا. ولعلّه خشي أن نظلّ طويلاً بغير مورد، فنعجز عن سداد قروضه أو نطلب قروضاً جديدة؛ تفكيره في الأمر أنبت فكرة تشغيلي عنده، ففاتح بها أمّي وهي التي نهته عن مفاتحتي بها، لأنها استصغرت العمل. وها هو أبو سمير لم ينحّ الفكرة: يمدّ لنا يد العون، ويستردُّ بعض مالِه إن لم يستردَّه كلّه، ويوقف مسلسل اقتراضنا منه، ثلاثة عصافير نسج قريبنا تفاصيل عرضه كي يصطادها حتى بدون حجر.

حين قدّم أبو سمير عرضه لي، التفتُّ نحو أمّي لأستطلع رأيها، فتجنّبتْ هي أن يلتقي نظرانا وبقيتْ صامته. أما بعد أن قلتُ للرجل إني أقبل العرض، فإن العجوز عقّبت بعبارة واحدة: "العمل عند الأقرباء أكرم من العمل عند الغرباء". بعدها، فرد أبو سمير ما نسجه ليظفر بالعصافير الثلاثة:

"أضع التاكسي بتصرّفك بصفة ضمان، فتدفع أنت لي من دخله أربعة عشر ديناراً كلّ يوم، فأحسب أنا سبعة منها سداداً منكم لما اقترضتموه مني، فكأنك تضمّنت تاكسي بسبعة دنانير، أي بنصف السعر الجاري في البلد". وذلك، كما قال من سَعِدَ بموافقتي دون مساومة، " كرمى للقرابة وتيسيراً منّي على الولد الذي ضيّع عمره في الوطنية".

كان من وَصَفه ربُّ العمل بالولد قد تجاوز الأربعين حين باشر أول عمل خاص يقوم به في حياته. عملتُ بهمّة المحتاج إلى مورد للعيش، الحريص على سداد الديون المتراكمة. فصرتُ أبدأ العمل مع ضوء الصباح ولا أتوقّف إلا بعد أن يجهدني الكدّ المتواصل. وغالباً ما كنتُ استمرُّ حتى التاسعة أو العاشرة مساء. وحين صارت قواي تخذلني حتى قبل أن يحلّ المساء، كنتُ أتحامل على ما يبقى لي منها وأُرغم نفسي إرغاماً على الاستمرار.

الجهد المتّصل ستّة شهور أثّر على صحتي. وتوالت نذر الأمراض، دون أن أجد وقتاً لزيارة طبيب. ولما تعذّر الاستمرار في هذا النحو، اضطررتُ إلى إنقاص ساعات العمل ومراجعة الطبيب. وبهذا، نقص الدخل وتبدّد جزء منه على العلاج. ولولا ضغط الحاجة القاهرة، لما أمكن أن أستمر. وحتى مع هذا الضغط، لم أتوقّع أن استمرّ طويلاً.

مرة أُخرى، جاءت المبادرة من أبي سمير. أرضى سلوكي صاحب التاكسي، فحرص على أن لا تقعدني المشقّة عن متابعته. ومع تأكيده على حُبِّه إيّانا وإيثارنا بمعروفه، قال ربّ عملي إنه يعرف سائقاً طيباً وإبن حلال مثلي، وبإمكان هذا السائق أن يُقاسمني وقت العمل على التاكسي ذاته، ثماني ساعات لكل واحد منّا، فيصير عليّ أن أدفع سبعة دنانير فقط، يَحتسب هو ثلاثة منها سداداً لقروضه.

نقص الدخل، فزادت الهموم دون أن تنقص متاعبي الصحيّة. وظهرتْ عليّ أعراض الهرم، فتذكرتُ ما حلّ بساجية حين كانت في مثل عمري. وتناوشتني الهواجس؛ لا زوجة، ولا ولد، ولا حاضر، ولا مستقبل، وهذا الليل المعتم الذي يطول دون أن تلوح له نهاية.

فجأة، انفجر النبأ الذي أثار الاهتمام في أربع أرجاء المعمورة: وقّعتْ قيادتنا بالأحرف الأولى اتفاق مبادئ مع حكومة إسرائيل. الاتفاق جرى التفاوض عليه في مدينة أوسلو النرويجية برعاية حكومتها، فحمل اسم هذه المدينة. واستبشر كثيرون بهذه الخطوة التي رأوا أنها تؤسس لمصالحة وسلام دائم بين طرفين امتدّ العداء بينهما مئة سنة. ومع النبأ، تعرفون، توهّجت آمال رغبية فتنت كثيرين منا: السلام آت؛ قوّات الاحتلال الإسرائيلية ستنسحبُ من قطاع غزّة ومدينة أريحا، أولاً، ثم تنسحب من بقية الأرض ومدنها وقراها التي احتلتها في العام ١٩٦٧؛ أرض الفلسطينيين التي احتُلّت في ذلك العام ستعود إليهم، وسيقيمون دولتهم عليها، وستكون القدس العربية عاصمة لها؛

المبعدون، مئات أُلوف الذين هُجّروا في ذلك العام، سيعودون إلى وطنهم؛ مئات أُلوف الذين هُجّروا في الحروب السابقة سيحصلون على حقوقهم، وبضمنها حق العودة كما نصّت عليه قرارات الأمم المتحدة. ألم تكن هذه وما يماثلها هي البشائر التي تضافرت جهود حَسني نيّة وسيّئيها في ترويجها؟ ألم تغالِ قيادتنا في تضخيم بشائر مضخّمة في الأساس، لتسوّغ كلّ ما أقدمت عليه مما لن يتكشّف خطره إلا بعد حين.

كنتُ، مثلكم، توّاقاً إلى ما ينتشلني ممّا أنا فيه، ممّا قوّى هواجسي بشأن حاضري ومستقبلي، فأوقَدتِ البشائرُ ما كان تحت الرماد، وشحذت الهمَّةَ المنطفئة، وجدّدت التوق العتيق إلى الجديد. فتنتني الفرصة التي سطعتْ، وعزمتُ على استثمارها؛ سأستعيد حضوري في الساحة العامة، سأعود إلى ملعبي وأقراني؛ سأتمتّع بالإقامة في وطني، بالحصول على هويّة ليست مستعارة أو مفروضة؛ سأظفر بالكرامة بعد طول امتهان. لم أتقصَّ تفاصيل الاتفاق، طغتْ عاطفتي المهتاجة على تعقّلي، فرفضتُ الانتقادات التي أوردها من تقصّوا التفاصيل. كنتُ، بل كنّا جميعنا عطاشاً غاض ماؤهم، فما أن ظهرت غمامة حتى توسّموا الإرتواء. لم آذن لخيبات الأمل السابقة أن تزعزع افتتاني. وحين قال الطبيب: "إنتبه، هناك ما يجعلني قلقاً على قلبك"، صاغ الافتتان إجابتي: "غداً أذهب إلى الوطن فينصلح كلّ شيء، القلب وغيره"! وحين كرّر الطبيب التحذير وحثّني على أخذه بجديّة، أجابته استهانتي بدواعي أيّ حذر: "سأعالج قلبي في بلدي".

هتف أمير. وغمرني جذل هذا الصديق الرائع وهو يفيض من سماعة الهاتف. قرأ هو الاتفاق بإمعان، وتقصّى التفاصيل. قال هذا وأضاف: "صار في اليد شيء نستطيع أن نبني عليه أشياء كثيرة"، قال إنه عازم على الذهاب مع العائدين إلى غزّة، وتمنّى أن ألاقيه هناك. وبحثتُ عن حازم الذي كانت ظروفه تُنقّله من بلد إلى آخر دون توقّف. واستمعتُ على الهاتف إلى الصديق الذي لا يفارقه تعقّله في أيّ ظرف: "لم أنته، بعد، إلى تكوين رأي باتٍّ في الاتفاق. أما الذهاب إلى غزّة أو أريحا أو أيّ مكان في وطننا، فمن الذي يرفض الفرصة إذا تيسّرت"!

موقف أمّي اختلف عن هذا كلّه. أمي التي لها في الوطن أكثر مما لأي منّا لم يفتنها الاتفاق. ولكَم حاولتْ هذه الأم لجم اندفاعتي، وما أكثر ما كرّرت الحكمةَ الشعبية: "انتظرْ حتى يذوب الثلج ويظهر المرج"! لكنّي، أنا الذي تصوّرتُ أنّي وقعتُ على خشبة النجاة، أبيتُ الاستسلام لأيّ شكوك، المرج ظاهر، الهوية بعد الضياع، الوطن بدل الشتات، الأرض، الحقوق، نقيم الدولة في الضفة والقطاع، والبقيّة تأتي، بعض بلادنا يعود إلينا فلِمَ لا نذهب إليها!

أناة العجوز نبّهتني إلى ما غيّبه تعجلي: "إن كانوا لا يعطوننا شيئاً ونحن نقاومهم، فكيف يعطوننا

أي شيء بعد أن نوقف المقاومة"؟ جبهتني أمّي بهذه الحجّة، إلا أن العناد هو الذي صاغ ردّي: "أنتِ لا تفهمين في السياسة. هذا اتفاق، تعهّدات متبادلة، نلتزم ما نتعهّده ويلتزمون ما تعهّدوه، أقول لك، لكنك لا تفهمين". وإزاء فظاظتي، تسلّحت الحريصةُ على تجنيبي الطيش بمنطقها: "وعود، هذه وعود فما قيمتها عند من خبرناهم طويلاً وعرفنا أنهم لا يلتزمون لا التعهّدات ولا الوعود. اشترطوا أن نوقف المقاومة وقالوا حقكم تأخذونه بعد ذلك، فكيف نأخذ حقوقنا إذا لم نقاومهم، كيف نأخذ منهم أي حق"!

ولأني شططتُ في صدم مشاعر أمّي بعنادي، فإن دماملها القديمة انفتحت ومخزونها انبثق: "لم يبق لي من العمر إلا القليل. والمقدّر قد يجيء قبل أن تقوم دولة الضفة والقطاع. لكن، حتى لو صدّقتُ أن دولةً ستقوم وأنا حيّة، فهل تُريدني، أنا ربيبة يافا، أن أنقل لجوئي من عمّان إلى بلدة في الضفة أو القطاع. ألم يعترف أصحابك في الاتفاق بأن يافا جزء من دولة اليهود، فإن كان كلّه لجوءً، فلماذا استبدل غربة بغربة"؟

نبتتْ في ذهن العجوز الهواجس التي أنبتها الاتفاق في أذهان معظم لاجئينا. ومن مخيّمها في عمّان، أثارت إبنة يافا الأسئلة التي انداحت في أماكن اللجوء جميعها: ما الذي سينوب ملايين اللاجئين ما دام الاتفاق قد ثبّت اغتصاب إسرائيل أربعة أخماس وطنهم ورهن مصير الخمس الأخير بموافقتها هي على تحديد مصيره؟ أما أنا فبقيتُ على ما فُتِنتُ به: التسوية التي يوجبها واقع الحال. وما دامت مقاومتنا أرغمت إسرائيل على القبول بمبدأ التسوية، فأين الضرر إذا أُوقفت المقاومة وتحدّدت بنود التسوية عبر المفاوضات التي ستستمر. في التسوية أنت لا تأخذ فقط ولا تعطي فقط؛ أنت في التسوية تأخذ وتعطي، وما دمت لا تعطي كلّ شيء فإنك لا تأخذ كلّ شيء.

افتتاني هو الذي صاغ الرسالة التي أرسلتها إلى تونس ليدرجوا إسمي في عداد طالبي العودة إلى غزّة. في الرسالة، استعدتُ لغةَ خطاب ظننتُ منذ زمان طويل أني تجاوزتها، أو قولوا إن هذه اللغة تلبّستني من جديد: "أنا المناضل الذي أهّلته الثورة لأقسى الظروف أضع نفسي في تصرفكم ونحن على الطريق إلى نصرنا الكبير". ووجدتني أخصّ القائد بتحية كنتُ أتّهم من يصدرُ عنه مثلها بأنه في المنافقين: "معكم ووراءكم حتى النصر"!

طمر افتتاني بالاتفاق ما تراكم في نفسي ضدّ القائد. جَلَت البشائر الخلابة إيجابيّات الرجل، فهو رجل المبادرة واختراق المحظورات، الجريء، والمحنّك. وفكّرتُ: هل أخطأ الذين قالوا إن قائدنا يعرف ما ينفع الشعب وما يضرُّه وعوّلوا عليه. وأقنعتُ نفسي بأن هؤلاء لم يُخطئوا، ومن أخطأ هو أنا وأمثالي.

حين أرسلتُ الرسالة، تصوّرتُ أن طلبي سيُلبّى بسرعة. فلمّا طال انتظاري دون تلقّي أيّ إشارة، فإني أرسلتُ رسالة ثانية، وذكّرت ناس القيادة بأنّي المسؤول الذي خبروه أيّام المعامع، وأني أخو الشهيد فادي المؤتمن، وأنّي، وأنّي... فلمّا لم يأت بالرغم من إلحاحي أيّ ردّ، نسبتُ التأخير إلى كثرة المتزاحمين على الانتقال إلى غزّة، وأرسلتُ رسالة ثالثة، ثم رابعة، ألحفتُ، وترجّيت، وكرّرتُ الرجاء، ولا ردّ. لم يغب عن بالي كيف يضطرب عمل ناسنا حين تدهمهم المهامّ الكبيرة. وظل في البال كثرة ذوي النفوذ الذين يتوسّطون لمحاسيبهم كي يظفروا بالأفضلية. ولأني خشيتُ أن يُستوفى عدد المسموح لهم بالذهاب إلى الوطن، العدد الذي حدّده الإتفاق، قبل أن أظفر بالفرصة، فقد نخوتُ وسطاء وتلقيتُ وعودهم. وإذ لم أظفر بالمطلوب حتى بعد هذا كلّه، فإنّي عزمتُ على التوجّه بنفسي إلى تونس البعيدة.

فاتحتُ العجوز بما اعتزمته وذكرت لها حاجتي إلى النفقة، فامتعضتْ: "ليس لنا إلا أبو سمير. يريد الرجل أن يستردّ دينه بعملك عنده، أما أنت فتريد أن تترك العمل، وتطلب مني، فوق هذا، أن أطلب منه قرضاً جديداً، ومن أجل أيّ شيء؟ من أجل أن تجري أنت وراء وعود الكذّابين وأقلق أنا عليك". لكن هذه الممتعضة هي أمّ، وهذا هو ما راهنتُ أنا عليه، فلم يخب رهاني.

وهكذا، أمكن أن أشرع في رحلة الأمل الذي حملني إلى تونس ثم إلى غزّة، الرحلة التي استغرقت شهرين وانتهت بخيبة الأمل التي أرجعتني إلى عمّان. ولكم أن تعرفوا أني رويتُ لعجوزي ما وقع لي، واعترفتُ لها بندمي على تجاهلي منطقها، واعتذرتُ عن فظاظتي. نعم، رويتُ كلّ شيء، لكنّي كتمتُ بعض ما قد يُثقل على أمّي. فأنا لم أقل، لمن استقبلتني بمشاعر موّزعة، إني تعرضتُ في غزة إلى أزمة قلبية كادت تودي بي. وحتى وهي تحثّني كي أنهض من نومي، لم أشأ أن أزيد أثقالها بأيّ حديث عن حاجتي إلى الراحة. وكيف أقول لأمي إن الطبيب الذي عالجني في غزة حذّرني: "الأزمة القلبية التالية قد تكون ... قد تكون هي القاضية".

أمّا لماذا ألحّتْ أمّي على عودتي إلى العمل فور وصولي، فلأنّ قريبها المحسن إلينا هجس بما يريب في غيابي الذي لم تبح أمّي له بسببه الحقيقي. وقبل رجوعي إلى عمّان بأيّام فقط، وجّه أبو سمير لأمّي إنذاره الأخير الحاسم: "إن لم يرجع الولد إلى عمله حتى يوم السبت فلن أرجعه إليه بعد ذلك أبداً، ولن أُؤجل المطالبة بما لي في ذمتكم". وكنّا في ذلك الصباح قد دخلنا في يوم السبت.